مجلة العلوم الإنسانية — المجلد 32 -عدد 1 -جوان 2021، ص.ص.41 -51

ملامح الوجودية وتمظهراتها في شعر بدر شاكر السياب

The Existentialist Manifestations in the Poetry of Badr Shakir al-Sayyaab

تاريخ الاستلام: 2019/12/28؛ **تاريخ القبول:** 2021/03/17

ملخص

المدرسة الوجودية مدرسةٌ تتناول البحث عن الإنسان وأصالته، وتؤكّدُ على تقدّم الوجود على الجوهرِ وترى أنّ جميع الأشياء مسخّر لإرداة الإنسان. من روّاد هذه المدرسة الفلسفية الّتي يدور مدارها حول الإنسان، يمكن الإشارة إلى: مارتين هايدجر، وجان بل سارتر، و... الذين أثّروا في الأدب الغربي. تسرّبت هذه المدرسة الفلسفية في جذور الأدب العربي المعاصر فتأثّر بها الشعراءُ العرب منهم الشاعر العراقي المعاصر "بدر شاكر السياب" حيث جعل الإنسان محوراً أساسياً في أشعاره.

نريدُ في هذا المقال من خلال تطبيقنا لآراء المدرسة الوجودية على أشعار السيّاب، أن نسلّطَ الضوءَ على مدى تأثير هذه المدرسة في أشعار الشاعر وذلك في تطرّقه إلى قضايا كالإنسان، والحياة، والتفكير بالموت، والحرية. يرى السياب أنّ الإنسانَ في هذه الحياة المادية، غريب ووحيدٌ؛ فيسعى الشاعر إلى تحريره من الأغلال حتى يصل إلى المفهوم الحقيقي من الحرية. السياب لا يرى في الموت نهايةً لحياة الإنسان؛ بل يذكر الموت كنقطة انطلاق لحياة جديدة يمنحها للنّاس في مجتمعه، فيصفه بالموت الحيوي، وهذه نقطة خلاف بين السيّاب والنظرية الوجودية.

الكلمات المفتاحية: الشعر العربي المعاصر، الوجودية، الإنسان، الحرية، بدر شاكر السياب

علي خضري

جامعة خليج فارس، بوشهر، ايران.

* Corresponding author, e-mail : alikhezri@pgu.ac.ir

Abstract

The school of existentialism is a philosophical school that speaks of humanity and its originality, which is based on the primacy of being on nature, and considers everything owned by human being. Philosophers like Martin Heidegger, Jean-Paul Sartre, etc founded this philosophical school that revolves around the human axis and overshadowed western literature. The ideas of this philosophical school also found their way into the contemporary Arabic literature and many poets, including the contemporary Iraqi poet Badr Shakir al-Sayyab, influenced by this school, have put man at the heart of their poems.

In this article, we are going to analyze the effect of this philosophical school on his poems by analyzing the school of existentialism and studying the poems of Sayyab with the following themes: human, life, mortality, freedom, commitment, etc. From the point of view of the poet, man in this material world is strange and alien, Sayyab is trying to release man of his confinements in order to attain the true meaning of freedom. The poet does not consider death as the end of the human life; instead he mentions it as a point for the beginning of another life for the surrounding people. He regards death as a vitalizing and life-giving stream which contradicts the view of existentialism..

Keywords: Contemporary Arabic Poetry, Existentialism, Human, Freedom, Badr Shaker al-Sayyab.

Résumé

L'école d'existentialisme est une école philosophique qui parle de l'humanité et de son originalité, qui est basée sur la primauté de l'être sur la nature, et considère tout ce qui appartient à l'être humain. Des philosophes comme Martin Heidegger, Jean-Paul Sartre, etc. ont fondé cette école philosophique qui tourne autour de l'axe humain et éclipse la littérature occidentale. Les idées de cette école philosophique ont également trouvé leur chemin dans la littérature arabe contemporaine et de nombreux poètes, dont le poète irakien contemporain Badr Shakir al-Sayyab, influencé par cette école, ont placé l'homme au cœur de leurs poèmes.

Dans cet article, nous allons analyser l'effet de cette école philosophique sur ses poèmes en analysant l'école d'existentialisme et en étudiant les poèmes de Sayyab avec les thèmes suivants: humain, vie, mortalité, liberté, engagement, etc. Du point de vue du poète, l'homme dans ce monde matériel est étrange et étranger, Sayyab essaie de libérer l'homme de ses enfermements afin d'atteindre le vrai sens de la liberté. Le poète ne considère pas la mort comme la fin de la vie humaine; au lieu de cela, il le mentionne comme un point de départ pour une autre vie pour les personnes environnantes. Il considère la mort comme un courant vitalisant et vivifiant qui contredit la vision de l'existentialisme.

Mots clés: poésie arabe contemporaine, existentialisme, humain, liberté, Badr Shaker al-Sayyab.

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2021.

1- المقدّمة

الوجودية مدرسة فلسفيّة-أدبيّة لعبت دوراً فاعلاً في الأدب العربي. تُعرف هذه المدرسة في الأدب الفارسي باسم "أصالة الوجود" وفي الأدب العربي يطلق عليها تسمية "الوجودية". «سورن راسورن كي يركجو» الفيلسوف الدنماركي هو المؤسّس لهذه المدرسة الفلسفيّة. (استراترن، 1385ش: 10)

المدرسة الوجوديّة بصفتها مدرسة فلسفيّة دخلت الأدب من خلال أعمال كبار الكتّاب أمثال سارتر، آلبر كامو، غابريل مارسل، مترلينغ و... . غاية الوجودية هي الإنسان أوّلاً وأخيراً. يرى الوجوديون بأنّ وجود الإنسان مقدّم على ماهيّته. (شريعتي، 1355ش: 7) يرى هايدغر -من العاملين في هذه المدرسة ومطوّريها-: بأنّ الوجود البشري أولى من ذاته، بعبارة أخرى، الوجود البشري، لا شيء سوى ذاته. (بارت، 1362ش: 46) "جان بل سارتر" فيلسوف في المدرسة الوجوديّة ومن القائمين في هذه المدرسة، هو الآخر الذي يرى أنّ الإنسان لن ينال نصيباً من ساحة الوجود البشري إلّا إذا عمل على ضوء فهمه واستيعابه للحقيقة وانشغل بالاختيار وقبوله للوظائف والمسؤليّات؛ فالإنسان لا شيء سوى ما يدليه من صنيع. (سارتر، 1380ش: 29) فهو يعتقد بأنّ الإنسان حرّ في كلّ شيء سوى في اختياره لعدم الحريّة؛ لذا لا قانون يمكن أن يحظر حريّته أو أن يحدّ منها. (الخفاجي، 1995م: 180- 181) على ضوء هذه الفكرة، يُعدّ الإنسان ووجوده، المحور الأساس وهو حرّ في هذا الاختيار.

يمكن أن نستنتج من خلال ما مرّ بنا حول المدرسة الوجودية بأنّ هذه المدرسة تركّز على مفاهيم عدّة منها: أصالة الإنسان الوجودية، الوجود بمعنى العيش في الزمن، الشعور بالمسؤوليّة بالنسبة إلى مصير العالم ومصيره، الخشية، التشرّد والغربة، اليأس، الموت، التفاهة وارتكاب الذنب والخطيئة. (ورنو والآخرون، 1372ش: 119)

كان لهذه المدرسة الفلسفيّة ومفاهيمها دور كبير في الأدب العالمي. وقد تأثّر الأدب العربي بهذه المدرسة وقد اعتمدها الكثير من الشعراء والأدباء العرب منهم: أدونيس، وصلاح عبدالصبور، ويوسف الخال و... . ومن ذلك أيضاً الشاعر المعاصر العراقي "بدر شاكر السيّاب". قد ركّز السيّاب على ملامح من هذه المدرسة الفلسفيّة، من ذلك يمكن الإشارة إلى نظرته بالنسبة إلى: الإنسان، والحياة وفكرة الموت، والحريّة.

كما أشرنا، الإنسان يمثّل المحور الأساس لجميع الأمور في المدرسة الوجوديّة، وموضوع الحريّة وتحرير الإنسان من القضايا المهمّة والرئيسة في هذه المدرسة؛ لذا ركّز الشعراء المعاصرون في أشعارهم على هذه الملاحظة. نرى بدر شاكر السيّاب كيف اهتمّ وركّز على الإنسان والحرّية في أشعاره. فالشاعر يبحث عن طريق وحلّ لتخلّص الإنسان ونجاته من القيود الّتي تحول بينه وبين وصوله إلى الحريّة؛ لذا يتحدّث عن مشاكل الإنسان المعاصر وآلامه ومآسيه ويسعى جاهداً إلى تصوير هذه المحن والمصاعب لعلّه يجد فتحة من النّور تثير فيه الأمل.

نسعى في بداية البحث عبر المنهج الوصفي-التحليلي وعلى ضوء مفاهيم المدرسة الوجوديّة، إلى إلقاء الضوء على أهمّ ملامح تأثّر بدر شاكر السيّاب بهذه المدرسة والّتي تتمحور حول ثلاثة محاور هي: الإنسان، والحياة وفكرة الموت، والحريّة.

1-1- أسئلة البحث

تجتهد الدراسة من خلال البحث في أشعار بدر شاكر السيّاب، الإجابة عن الأسئلة التّالية:

- ما مدى اعتماد بدر شاكر السيّاب على المدرسة الوجوديّة وما هي أهمّ الملامح الوجوديّة في أشعاره؟

- ما هو الباعث في رغبة الشاعر وميله إلى المدرسة الوجودية؟

1-2- فرضيّات البحث

- نجد من الملامح والإشارات الدالّة على المدرسة الوجوديّة في أفكار بدر شاكر السيّاب مثل تطرّقه إلى موضوعات كالإنسان، والحياة، وفكرة الموت والحريّة.
- وجود مظاهر من المدرسة الوجوديّة في أشعار الشاعر، تكشف عن الحياة والظروف المضطربة والاستبدادية في البلدان العربيّة.

1-3- خلفيّة البحث

هناك دراسات قيّمة حول الوجودية وتأثيرها في الأدب، منها مقال لعبدالحسين فرزاد يحمل عنوان «نقد و بررسی انديشه خردگرايی و آزاداندیشی در شعر متنبّی شاعر عرب و ناصر خسرو قبادیانی» (نقد ودراسة العقليّة وفكرة التحرّر في شعر المتنبّي الشاعر العربي وناصر خسرو قبادياني) المنشور في مجلّة "شناخت" في عام 1384ش. تطرّق الكاتب في هذا المقال إلى الحريّة الوجوديّة عند ناصرخسرو والمتنبّي وأشار إلى أنّ الحريّة أكثر ظهوراً عند ناصرخسرو مقارنة مع المتنبّي.

وكذلك مقال آخر معنون بـ «الموت الخيّامي في شعر صلاح عبدالصبور» لفرامرز ميرزايي وعلي پروانه في مجلّة "اللّغة العربية وآدابها" عام 1430ق؛ تطرّق فيه الباحثان إلى فكرة الموت الوجودية عند صلاح عبدالصبور الّذي كان متأثّراً بالفكر الخيّامي.

ومقال آخر يحمل عنوان «مرگ انديشی خيامی در آثار دو شاعر فارسی و عربی: صلاح عبدالصبور و نادر نادرپور» (فكرة الموت الخيّامي في أعمال شاعرين في الفارسيّة والعربيّة: صلاح عبدالصبور ونادر نادرپور) لفرامرز ميرزايي وزملائه المنشور في عام 1389ش في مجلّة "جستارهای زبانی"؛ قد تطرّق فيه الباحثون إلى فكرة الموت الوجودية في أفكار صلاح عبدالصبور ونادر نادرپور.

وكذلك مقال آخر لحسن گودرزي لمراسكي معنون بـ «اگزيستانسياليسم در شعر يوسف الخال» (الوجودية في شعر يوسف الخال) المنشور في عام 1392ش: قام الباحث بدراسة مفهوم "أصالة الوجود" في شعر يوسف الخال وبحث عن مفاهيم هذه المدرسة الوجودية في أشعار هذا الشاعر.

نجد دراسات عدّة حول بدرشاكر السيّاب أيضاً، منها: «بدر شاكر السياب، دراسة فی حياته وشعره»؛ من تأليف إحسان عبّاس في عام 1987م وقد تطرّق فيه إلى حياة الشاعر وشعره. ومقال آخر يحمل عنوان «نقد توصيفی - تحليلی اسطوره در شعر بدر شاكر السياب (مطالعه‌ی مورد پژوهانه: اسطوره‌ی سربروس و تمّوز)» (النقد الوصفي-التحليلي للأسطورة في شعر بدرشاكر السيّاب (أسطورة سروبروس وتمّوز نموذجاً) ليحيى معروف وپيمان صالحي في عام 1390ش؛ تناول البحث موضوع الأسطورة في شعر السيّاب وتأثّر الشاعر بأسطورتي "سروبروس وتموّز". ومقال: «مبارزه و پايداری در شعر بدر شاكر السياب (با تكيه بر شعر سرود باران)» (النضال والمقاومة في شعر بدرشاكر السيّاب؛ على ضوء أنشودة المطر) لأمير حسين رسول نيا ومريم آقاجاني في عام

1392ش: اجتهد فيه الباحثان لإلقاء نظرة جديدة إلى قصيدة "أنشودة المطر" وأن يصوّرا نفسيّة المقاومة ومكافحة الظلم عند السيّاب في هذه القصيدة.

ومقال آخر يحمل عنوان «بررسی و تطبیق اندیشه‌های اجتماعی در شعر بدر شاکر السیاب و قیصر امین پور» (آراء بدر شاكر السيّاب وقيصر أمين بور الاجتماعيّة؛ دراسة مقارنة)، لعبّاس گنجعلی ونعمان انق المنشور في العدد 13 من مجلّة "ادبيات تطبيقی" في عام 1394: قد درس الباحثان أهمّ المضامين الاجتماعيّة في أشعار هذين الشاعرين. ومقال آخر لمهين حاجي زاده وعلي فضا مرادي يحمل عنوان «غربت گزینی در شعر بدر شاکر السیاب» (اختيار الغربة في شعر بدر شاكر السيّاب) المنشور في مجلّة "لسان مبين" في عام 1390: تطرّق فيها الباحثان إلى دراسة الاغتراب وأنواعه في أشعار الشاعر.

ومقال «بررسی تطبیقی اسطوره سندباد در شعر بدر شاکر السیاب و خلیل حاوی» (أسطورة سندباد في شعر بدر شاكر السيّاب وخليل حاوي؛ دراسة مقارنة) لعلي سليمي وپيمان صالحي المنشور في مجلّة "زبان و ادبيات عربی" في عام 1390: تطرّق فيه الباحثان إلى دراسة أسطورة سندباد عند الشاعرين.

أحمدي جناري (1392م) في بحث يحمل عنوان: «بررسی تطبیقی مفهوم مرگ در چکامه سرزمین ویران الیوت و اشعار سیاب بر مبنای نظریه کهن الگوها» (مفهوم الموت في شعر "أرض الخراب" لإليوت وأشعار السيّاب على ضوء نظريّة الأنماط الأوّليّة؛ دراسة مقارنة)؛ تطرّق البحث إلى تأثّر السيّاب من إليوت ومقارنة هذين الشاعرين.

كما تبيّن لنا من خلال ما ذكرناه، لا توجد دراسة مستقلّة تناولت ملامح الوجودية في شعر السيّاب، لذا يجتهد هذا البحث في سبيل تحليل أشعار الشاعر وتقييمها على ضوء النظريّة الوجودية.

2- أهمّ ملامح الوجوديّة في شعر السيّاب

لم يعش السيّاب طويلاً إلّا أنّه عانى ما عانى من المخاوف والمصاعب في حياته. قد وُلد بائساً، وعاش متألّماً ومات بعد طول عراك مع أنواع الأمراض في مستشفى الكويت. (بطرس، لاتا: 72) هذه الحياة المأساوية جعلت من السيّاب يتّجه نحو النظرة الوجودية بالنسبة إلى الإنسان وظروفه في الحياة. فهو أبداً يركّز في أشعاره على الإنسان، والحياة والحريّة. سنتناول في البداية دراسة "الإنسان" بصفته أهمّ الملامح في المدرسة الوجودية في شعر السيّاب:

2-1- الإنسان

العناية بالوجود البشري من المبادئ الرئيسة في المدرسة الوجودية، والّذي يراها سارتر نوعاً من النزعة الإنسانية. (أحمدي، 1384ش: 27) الوجوديون يعتقدون بأنّ الإنسان موجود وهذه التوعية تعود إلى أفكاره. فهم يرون أنّ الوجود مقدّم على ماهيّته (المصدر نفسه: 169). نرى تمظهرات هذه الفكرة في أعمال الكثير من شعراء العرب المعاصرين. السياب مثله مثل أكثر الشعراء المبدعين في الشعر العربي المعاصر، يجعل من الإنسان مبدأ أشعاره ويسعى جاهداً أن يصوّر آلامه ومآسيه في شعره.

الإنسان في شعر السيّاب "إنسان حرّ"؛ لذا نراه يناضل في سبيل تحصيله للحريّة والتخلّص من القيود والإسار الّتي تحدّ حريّته. في الواقع يعدّ الإنسان والموضوعات الإنسانيّة من المضامين الرئيسة في أشعار السيّاب ومع ما وجد في حياته من آلام وجروح، إلّا أنّه مازال يرى في الحياة أملاً ونوراً يجتهد من أجله.

بدر شاكر السيّاب في قصيدة له موسومة بـ "اللّيلة الأخيرة" يرى الإنسان مسافراً يعجز عن الوصول إلى طموحاته؛ مسافر متعب يحمل على ظهره حِملاً من الألم والجروح، وهو إنسان غريب عمّا يجده في الدنيا الّتي يملأها الغبار والدّخان والأسفلت ويحاول الابتعاد عنها:

«سيحملُ المسافرُ العليلُ

ما ترك الداءُ له من جسمِهِ المذابِ

ويهجرُ الدخانَ والحديدَ

ويهجرُ الأسفلتَ والحجرَ

لعلّه يلمحُ وجهَ اللهِ فيها وجهَهُ الجديد

في عالمِ النقودِ والخمورِ والسهرِ» (السياب، 2005: 166/1)

يقدّم لنا السيّاب صورة مؤلمة عن الإنسان المعاصر، فهو إنسان يتمتّع بنزعة إنسانية ووجوديّة، غارق في المال والشراب والسهر، وهذا هو الأمر الّذي يطلبه الوجوديون من الإنسانية؛ أي ألّا يفكّر الإنسان سوى بنفسه وبهذه الدنيا المادّية ويعيش من أجلها. لكنّ السيّاب ينأى عن هذا الإنسان ويريد الابتعاد عن هذه الدنيا الزاخرة بالدخان والحديد حتّى يتقمّص وجهاً جديداً لتظهر عنده في الأخير، صورة الله في ذلك العالم. في الواقع يعتقد السيّاب بعالم مختلف عن هذا العالم، عالم ماوراء المال والسكر والشراب، العالم الّذي يكون خير بداية لحياة أفضل.

يتكلّم السيّاب في قصيدة "غريب على الخليج" عن غربة الإنسان المعاصر، فهو يرى أنّ الإنسان غريب عن هذا العالم. فهو يتحدّث عن اغتراب روح البشر، وبالتّالي يشكو عصر الحديد والألم. يرى السيّاب أنّ هذا العالم المادّي يخلو ممّا يؤهّل الدجاجة على أن تفكّر في الطيران في خيالها:

«يا غربة الرُّوح في دنيا من الحَجَر

والثَّلجِ والقَارِ والفُولاذِ وَالضَّجَر

يا غربةَ الرُّوح لا شمسٌ فائتَلِقُ

فيها ولا أفُق

يطيرُ فِيهِ خَيالي ساعَةَ السَّحَر» (المصدر نفسه، 394/2)

تحت هذه النظرة الوجودية يعمد الشاعر إلى التركيز على الجانب الاغترابي في نصّه الذي يصطدم به في هذا العالم الذي كأنّه صُنِع من الحجر والثّلج والقار والفولاذ والضجر، فكلّ هذه المكوّنات التي جاء بها السياب تتّصف بالجمود. وفي قصيدة "ستار" يصف الشاعر حالته وظروفه الّتي هي تصوّر في الواقع ظروف الإنسان المعاصر وكيف أنّه يعاني من الحيرة والإبهام؛ الإنسان المعاصر الّذي تحاصره الغياهب والظلمات وتبتليه الأمطار العاصفة ولا يجد من ناصر ينصره أو معين يعينه:

«كَالشاطيء المَهجُور قَلبي، لا وَمِيضٌ ولا شِرَاع

في لَيلَةٍ ظلماءَ، بَلَّ فَضاءَها المَطَرُ الثَّقِيل

لا صَرخَةُ اللُّقيا تُطِيفُ بهِ ولا صمتُ الرَّحِيل» (المصدر نفسه، 324/1)

يصوّر السياب فراره (الإنسان المعاصر) من ضوضاء المدينة في قصيدته "العودة إلى جيكور"؛ فهو يشعر بملل وكآبة تّجاه ما يراه من فوضى في السوق المكتظّ بالبائعين، من الصباح المرهق والليالي المليئة بأصوات عواء الكلاب والعابرين في الصباح إلى ظلمات الليل. «لا ريب أنّ قصيدة "العودة إلى جيكور" تصور مدى جراح السيّاب وعجزه ومن ثمّ رغبته في الفرار عن المدينة إلى حيث مرتفعات جيكور» (نعمان، 1426ق: 94)؛ لذا يفضّل السيّاب قرية جيكور على المدينة:

«على جَوادِ الحُلُم الأشهَب

أسرَيتُ عَبر التِّلال

أهرُبُ منها، من ذُراها الطِّوال

مِن سُوقِها المُكتَظِّ بِالبَائِعِين

مِن صُبحِها المُتعَب

مِن لَيلها النّابِحِ وَالعَابِرين

مِن نورِها الغَيهَب» (السياب، 2005، 78/2)

ففي هذا النصّ يصوّر الشاعر هروبه من فضاء المدينة الصاخبة نظراً لاتجاهه الانساني الريفي. فالشاعر الذي أحبّ الريف وتمتّع بخيراته لا يمكنه العيش في فضاء المدينة التي تفقد الإنسان الكثير من التزاماته التي تعوّد عليها منذ الصغر في بيئة الريف.

2-2- الحياة وفكرة الموت

لطالما كانت الغربة إلى الحياة مقرونة بالخوف من الموت والإنسان يجتهد دائماً في سبيل البقاء والحياة. وبما أنّ المدرسة الوجودية تعتقد بأصالة وجود الإنسان؛ لذا ترى الحياة والبقاء من ملزومات الوجود، من هذا المنطلق تسعى هذه المدرسة إلى بقاء البشر. وأحياناً تميل نحو الموت، وذلك عندما يكون الموت، بداية لحياة جديدة ممّا يعبّر عنه "بالموت الّذي تعقبه الحياة". وقد ظهر هذا المفهوم في الشعر المعاصر أيضاً. لطالما كان هذا السؤال يراود الأدب العربي حول الموت: هل بإمكان الموت أن يمنع الإنسان من التفكّر في نفسه ويجعله عرضة لليأس والاستسلام والاضطراب، أو أنّ الموت نفسه، دافع لاستمرار الحياة؟" (قميحه،1981: 377).

السيّاب يسعى إلى تصوير الواقع المعاش العربي في أشعاره، لكن يتميّز -خلاف مجايليه من الشعراء المعاصرين- بنظرته المتأثّرة من المدرسة الوجودية الّتي لا تهاب الموت ولا ترضى بالحياة المقرونة بالذلّة والهوان أبداً؛ بل يؤثر لنفسه الموت الّذي يؤدّي إلى استمرار الحياة.

يجتهد السيّاب في تصوير آلام النّاس، وجروحهم والأحلام الّتي تراود أفكارهم في مجتمعه وهو يقاوم جميع ما يحول بينه وبين سعادة النّاس في مجتمعه. هو يسعى أن يستخرج رمز الحياة من كلّ حادثة بسيطة، ولو كانت تلك الحادثة، حادثة الموت. من هذا المنطلق، المواجهة مع الموت جزء لا يتجزّأ من الحياة ونابع عن فكرة الإنسان حول الوجود والعالم؛ سواء لاقى فراراً وانزجاراً من قِبل الإنسان أم واجه قبولاً. (بكر، 1388ش: 321)

أولى إبداعات السيّاب كـ:"أزهار ذابلة" (1947م) و"أزهار وأساطير" (1950م) في مواجهة الموت، تُعدّ نوعاً من الحزن الرومانسي، والّتي تعدّ حصيلة للفكرة الذاتية ودراسة

الشاعر للعلاقات المسيطرة على الوجود. (الورقي، لاتا: 273) أمّا صورة الموت عند الشاعر، فقد استلهمها من واقع حياته.

موت أقرباء الشاعر وأحبّاءه جعلت منه فرداً متشائماً بالنسبة إلى هذه الظاهرة الطبيعية؛ إذن كراهية السيّاب بالنسبة إلى الموت تعود إلى تجاربه الشخصيّة في الحياة. وفاة أمّه، وجدّته، ومرضه الدائم و... كلّ ذلك جعل من الشاعر يشعر بأنّ الموت يلاحقه دوماً. فمن الطبيعي أن لا يجد لنفسه مفرّاً من مخالب الموت. (بطرس، لاتا: 273)؛ لذا يثير الشاعر تساؤلاً حول الموت وهل أنّ حياته ستنتهي بهذا الشكل:

«وا حسرتا! أكذا أموتُ كما يجفُّ ندى الصّباح

ما كاد يلمع بَينَ أفواف الزنابق والأقاحي؟!» (السياب، 2005: 299/1)

تظهر لنا من خلال نظرة الشاعر إلى الحياة، بأنّه يرى الحياة قصيرة كلمعان ندى الصبّاح، مثله مثل حياة الإنسان، تظهر في آن وتختفي في آن آخر، فلحظات الحياة القصيرة تزعج الشاعر وتضجّ مضجعه. ولا يخفى على المتلقي ما تحمله البداية "وا حسرتا" من زخم دلالي مثير وموجع؛ كما أن علامة الإدهاش (!) تؤدّي وظيفة استغرابية مدهشة تربط شعور الشاعر بشعور المتلقي، ولكي يصوّر الشاعر فداحة الاستغراب يأتي بسؤال يختمه بعلامتي استفهام وادهاش؛ فكلّ هذه المكوّنات تؤدّي رسالة واحدة وهي ازعاج الشاعر واستغرابه من ظاهرة الموت التي تجفّف ندى الصباح.

السيّاب يجعل موضوعين أساسيين نصب عينه في قضية الموت: "الموت في الحياة" و"الحياة في الموت"، بالتّالي فعندما يريد أن يتطرّق إلى هذين الموضوعين في شعره، نلحظ جدالاً كبيراً له مع هذين الموضوعين. نرى غلبة موضوع "الموت في الحياة" في المرحلة الأولى من شعره، أمّا المرحلة الثانية؛ أي مرحلة تمّوز، فإنّنا نشهد غلبة موضوع "الحياة في الموت" الّذي يرفقه ميلاداً جديداً زاخراً بالأمل والخصوبة والبعث. (علي، 1978م: 172) فهو يرى في هذا الصدد بأنّ ولادة ابنه "غيلان" ميلاداً جديداً بالنسبة إليه واستمراراً في الحياة، وبالتّالي يرى من موته، حياة وبعثاً جديداً لنفسه:

«يَا ظلّي الممتدَّ حِينَ أمُوتُ، يا مِيلادَ عُمري مِن جَدِيد» (السياب، 2005: 12/2)

لا يرى السيّاب من الموت، نهايةً للإنسان، بل يعتقد أنّه سيبقى أثراً من الإنسان بعد الموت يؤدّي إلى استمرار حياته وهذا يخالف وعقيدة المسرفين من الوجوديين الّذين يرون الموت نهاية الحياة. فهو ينشد في قصيدة تحمل عنوان "الوصيّة":

«لا تحزني إن متُّ أيُّ بأسٍ

أن يحطمَ النايُ ويبقى لحنُهُ حَتّى غدى» (المصدر نفسه، 282/2)

ذلك هو الموت الّذي يؤهّل الإنسان لتجربة حياة جديدة على حدّ تعبير الشاعر، الموت الّذي ستمتدّ صرخته إلى الأبد وستؤدّي إلى الحريّة والاستمرار في الحياة. يعتقد السيّاب بأنّ الفرار واللّامبالاة بالمشاكل والآلام أو اللّجوء إلى الأمور غير الحقيقة الّتي يشاهدها في المجتمع لن تجدي نفعاً ولا يعتبر ذلك حلّاً في مواجهة هذا الواقع الخطير، بل يجب النهوض والسير قدماً في طريق المقاومة. (حلاوي، 1994: 74)

لا يعني السيّاب من المقاومة، سوى اللجوء إلى الموت، الموت الّذي يتبعه التخلّص من الألم والحزن. نرى الفكرة الوجودية تصرّ على هذا التساؤل القائم: كيف بإمكان الإنسان أن ينقذ نفسه من الآلام والمآسي؟، أمّا الموت عند السيّاب فهي أداة تتيح للإنسان فرصة التخلّص من الآلام والمصائب الّتي تعتريه في المجتمع.

للسيّاب نظرة أخرى حول الموت والحياة أيضاً، أي التضحية لمنح حياة جديدة إلى الآخرين، تلك التضحية الّتي تقدّم للمجتمع حياة جديدة. ينشد السيّاب في قصيدة معنونة بـــ "المسيح بعد الصلب":

«يلمسُ الدِّفءُ قَلبِي فَيجرِي دَمي في ثَرَاها

قَلبي الشَّمسُ إذ تَنبُضُ الشمسُ نُورا

قَلبي الأرضُ تَنبُضُ قَمحاً وَزَهراً ومَاء نَمِيراً

قَلبي المَاءُ، قَلبي هوَ السنبلُ

مَوتُهُ البَعثُ» (السياب، 2005: 253/2)

يعتقد الشاعر بأنّ موته وفناءه سيمنح حياة جديدة إلى جميع المخلوقات؛ لذا يؤثر الموت على حياة تتخلّلها الذلّة والهوان، فيقول بعد ذلك:

«مُتُّ كَي يُؤكَلَ الخُبزُ بِاسمِي لكنِّي يَزرَعُوني مَعَ المَوسِمِ

كَم حَياةٍ سَأحيَا فَفي كَلِّ حُفرَة

صِرتُ مُستَقبَلاً، صِرتُ بذرَة» (المصدر نفسه)

فهنا نرى روح التضحية والايثار، يموت الناس كي يكون مصدر حياة وانبعاث للآخرين، وهذا الأمر لا يعتبره السياب موتاً بل حياة تجدّدية (كم حياة سأحيا)، تحمل مشعل الاضاءة للآخرين في المستقبل من خلال تكاثرها وقدرتها على الإنتاج (صرت بذرة)، فهذه البذرة وحدها كفيلة بالتكثير والإنتاج.

3-2- الحريّة

الوجوديّون يقدّرون الإنسان ويلقون له بالاً كبيراً ويعدّونه أشرف المخلوقات؛ لذا يعتقدون بأنّ: الإنسان يجب أن يتحلّى بالحريّة والحريّة تمثّل المحور الأساس في فكرة سارتر. (أحمدى، 1384: 22) الوجوديون يعتقدون بحريّة الإنسان وتحرّره من القيود الّتي تحول بينه و بين نيله للماديّات، ويقولون: «الإنسان حرّ في كلّ شيء سوى في عدم تحرّره، فإذن لا قانون يقف أمام الإنسان في سبيل تحرّره». (الخفاجي، 1995: 180-181)

كان السيّاب يعاني من مشاكل شخصيّة واجتماعيّة جمّة في حياته وقد جرّب الكثير من الآلام والمصائب إثر الاستبداد والاستعمار والفقر، فكان أبداً يفكّر في التحرّر من قيود الفقر والاضطهاد الاجتماعي؛ لذا نراه يصوّر نماذج من التحرّر، فهو في قصيدة "المسيح بعد الصلب" يعرّف لنا النبيّ عيسى (ع) نموذجاً يقتدي به في نيل التحرّر والحرّية. فهو يرى أنّ المسيح (ع) (رمز للشاعر أو الإنسان المعاصر) بجميع ما تحمّل من مصاعب وآلام، فقد كان متحرّراً من جميع القيود والأغلال. وهو كان داعية للتحرّر:

«بَعدَمَا أنزَلُوني سَمِعتُ الرِّيَاح

في نواحٍ طَوِيلٍ تَسُفُّ النَّخِيل

وَالخُطَى وَهيَ تَنأَى إذَن فَالجِرَاح

وَالصَّلِيبُ الَّذِي سَمَّرُوني عَلَيهِ طوالَ الأصِيل

لم تَمُتني وَأنصتُ كَأنَّ العُوِيل

يعبُرُ السَّهلَ بَيني وَبَينَ المَدِينَة

مثل حَبلٍ يَشُدُّ السَّفِينَة». (السياب، 2005: 252/1)

يرى بدر شاكر السياب أنّ الإنسان الحرّ هو الإنسان الّذي يتحرّر من جميع القيود الّتي تمنع التمتّع بالحياة من قِبل الإنسان، فهو يرى أنّ الإنسان الحرّ هو الّذي لا يحصر نفسه في قيود الاستبداد والاستعمار والفقر؛ لذا فالشاعر يحارب هذه القضايا ويدعو الإنسان إلى الابتعاد عن مثل هذه المصاعب والشدائد. يفصح الشاعر عن آلام مجتمعه في قصيدة "أنشودة المطر" ويتكلّم حول القيود الّتي تسلب الإنسان حريّته. هناك عندما يكون الإنسان وحيداً، يشعر بنوع من الضيق والشدّة؛ الإنسان الّذي يعاني من الجوع، والحبّ الفاشل والطفولة والموت وكلّ هذا يسلب الإنسان حريّته. يشبّه الشاعر كلّ ذلك بالمطر، فقد عاش الشاعر جميع هذه القضايا في طفولته بكلّ ما أوتي من مشاعر وقد أحسّ جميع هذه القيود وأدركها:

«وَكيفَ يَشعُرُ الوَحِيدُ فِيهِ بِالضّيَاع؟

بِلا انتِهَاء – كَالدَّمِ المُراق، كَالجِياع

كَالحُبِّ، كَالأطفَالِ، كَالمَوتى – هوَ المَطَر!» (المصدر نفسه، 120/1-121)

فيرى الشاعر أن الوحيد الذي يحيط به الاستبداد والكبت والحرمان يرى نفسه في دوّامة من الحزن والضّياع والتشرذم. يتكلّم السيّاب عن مخاوفه في قصيدة تحمل عنوان "المعبد الغريق" ويأمل أن تتحرّر جميع الإنسانيّة من القيود وأن يتخلّصوا من معاناة الفقر والفاقة، والجوع والألم والمحن. فهو يرى أنّ في عالم الغرقى من الكنوز والثروة بإمكانها أن تخلّص الإنسان من جميع الآلام وأيادي الجبابرة الجلّادين:

«هنالك ألف كنزٍ من كنوز العالم الغرقى

ستشبعُ ألف طفلٍ جائعٍ وتقيل آلافاً من الداء

وتنقذُ ألف شعبٍ من يد الجلاّد» (المصدر نفسه، 104/1)

يقترب الشاعر من الرؤية الوجودية، ففي اعتقاده أنّه يمكن القضاء على جميع الآلام البشريّة ومآسيها بمساعدة الأموال والثروات؛ لأنّ المادّيين يرون أنّ العالم المادّي بإمكانه أن يكون خير معين ونصير في حلّ المصاعب الّتي تعتري الإنسان في هذه الدنيا. أمّا الشاعر فله أمل بالمستقبل والتخلّص من الظروف الحاليّة لمجتمعه، وتحسّن حالة النّاس المعيشية بعيداً عن القيود ومشاكل الحياة وذلك في قصيدته المعروفة "أنشودة المطر"، يصف الشاعر هذا الأمل على النحو التالي:

«في كُلِّ قَطرَةٍ مِنَ المَطَر

حَمرَاءَ أو صَفرَاءَ مِن أجِنَّةِ الزَّهَر

وَكُلُّ دَمعَةٍ مِنَ الجِيَاعِ وَ العُرَاة

وَكُلُّ قَطرَةٍ تُراقُ مِن دَمِ العَبِيد

هِيَ ابتِسَامٌ في انتِظَارِ مَبسَمٍ جَدِيد

أو كَلِمَةٌ تَورَّدَت عَلى فَمِ الوَلِيد

في عَالَمِ الغَدِ الفَتَى وَاهِبُ الحَياة!

مَطَر ... مَطَر ... مَطَر ...

سَيُعشَبُ العِرَاقُ بِالمَطَر ...» (المصدر نفسه: 132/2)

يتحدّث الشاعر في هذا المقطع حول آلام النّاس في المجتمع وأحزانهم والقيود الّتي يعاني منه النّاس في المجتمع. ويرى من هذه الآلام والمصائب، ودموع الضعفاء والمظلومين؛ منعطفاً وبداية للتخلّص من هذه المشاكل؛ فالشاعر يراها كقطرات المطر الّتي تنتج من خلفها الأزهار الملوّنة وتجعل الأرض مخضّرة. الشاعر لم يفقد أمله في حريّة الإنسان والتخلّص من هذه المصاعب والآلام ويظلّ ينشد نشيد الأمل بالحريّة للإنسانية جمعاء. ونرى البشارة العظمى تكمن في تعبيره التالي: (هي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد)، حيث كل تلك قطرات الدم والدموع التي سكبها الشعب ستتحوّل إلى ابتسامة وفرحة، فعالم الغد الفتي سوف يهب الحياة للشعب وسيصبح البلد أخضر.

النتائج

تناولنا في هذه الدراسة، ملامح الوجودية ومظاهرها في شعر بدر شاكر السيّاب. من المفاهيم الأساسيّة لهذه المدرسة الفلسفيّة الّتي كان لها الأثر الكبير في أشعار الشاعر والتي تردّدت في أشعاره بكثرة، هي: الإنسان، والموت والحياة، والحرّية.

الإنسان على ضوء فكرة الشاعر الوجودية، موجود يعاني من الاغتراب الروحي في هذه الدنيا وهو يعيش شعور الوحدة بين الأبنية المصنوعة من الحديد والأسمنت؛ لذا الشاعر يعارض الفكرة الوجودية الطامحة إلى ذوبان الإنسان في تيّار الحداثة والأبنية الناطحة للسحاب، بل يطمح إلى الحريّة وتجرير الإنسان من القفص الحداثة الذهبي. أمّا السيّاب فيعقتد بعالم ما وراء هذا العالم؛ لذا يؤثر الموت الّذي يمنح الحياة إلى ما حوله، على حياة ملؤها الهوان والذلّة. فيما يتعلّق بالحريّة، فنظرة الشاعر قريبة من النظرة الوجودية. يعتقد أنصار المدرسة الوجودية بحريّة الإنسان وانطلاقه ويجب الحياة دون التوغّل في القيود والأغلال.

يرى الشاعر من الفقر، والجوع، والظلم والاضطهاد والحكّام الظالمين موانع في سبيل حريّة الإنسان، والّذي يجب على الإنسان أن يحرّر نفسه حتّى يتمكّن من الحصول على الحريّة في هذه الدنيا المادّية. بصورة عامّة لبدر شاكر السيّاب نظرة وجودية حول الإنسان، والحياة والممات، والحريّة وقد عارض هذه الفكرة الفلسفيّة الإنسانية في مواضع أخرى من أشعاره.

المصادر والمراجع:

-احمدي، بابک (1384) ، سارتر که می نویسد، طهران: نشر مرکز.

- استراترن، پل، (1385) *آشنایی با کیرکگور*، المترجم علی جواد زاده، تهرا: نشر آگاه.

- بارت، ویلیام، (1362) *اگزیستانسیالیسم چیست؟*، المترجم منصور مشکین پوش، تهران، نشر آگاه.

- بکر، ارنست، (1388) *وحشت از مرگ*، المترجم: سامان توکلی، ارغنون شماره 26 و 27، تهران.

- بلاطه، عیسی، (1971م) *بدر شاکر السیاب- حیاته و شعره*، الطبعة الأولى، بيروت، دار النهار للنشر.

- بطرس، أنطونيوس، (لا تا) *شاكر السياب شاعر الوجع*، بدون نشر.

- حلاوى، يوسف، (1994م) *الأسطورة في الشعر العربي المعاصر*، بيروت، دار الآداب.

- الخفاجي، محمد عبدالمنعم، (1995م) *مدارس النقد الأدبي الحديث*، ط1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.

- سارتر، ژان پل، (1380) *اگزیستانسیالیسم و اصالت بشر*، المترجم؛ مصطفی رحیمی، تهران، نشر قطره.

- السياب، بدر شاكر، (2005م) *ديوان الشعر*، بيروت، دار العودة.

- شريعتی، علی، (1355) *اگزیستانسیالیسم و علم و اسکولاستیک جدید*، قم، نشر عمار.

- علی، عبدالرضا، (1978م) الأسطورة في شعر السياب، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والفنون.

- قميحه، مفيد محمد، (1981م) الإتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، بيروت، دار الآفاق الجديدة.

- نعمان، خلف رشيد، (1426ق) *الحزن في شعر بدر شاكر السياب*، بيروت، دار العربية للموسوعات.

-ورنو، روژه؛ جان، وال، (1914م)، النظرة إلى الفينومينولوجيا، طهران: نشر خوارزمي